مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (3)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (3) 2016

خَصَائِصُ المَثَلِ الأُسْلُوبيَّةِ والمَعْنَويَّةِ في النَّثْرِ الفَنِيِّ

الدكتور خليل غريري *
مسعود أميري **

(تاريخ الإيداع 25 / 5 / 2016. قبل للنشر في 30 / 6 / 2016)

□ ملخّص □

إن مقالتنا هذه تروم استجْلاءَ فنٍّ من فنون العربية وهو المثل بوصفه وثيقة تاريخية وحضارية تعكس كثيراً من ملامح حياة العربي، من خلال التركيز أساساً على جوانب المثل في النثر الفني العربي. وسيكون سبيلنا إلى ذلك قراءة هذه المثل بتأنٍّ وتعمُّقٍ، والنفاذ إلى المعاني القابعة خلف ألفاظهما، والإفادة من الجهدِ القيِّم الذي بذله كُلٌّ من الخطباء العرب والنقاد في سبيل تطوير هذا الفن.

وقد جاء البحث مكوناً من مقدمة، تحدثنا بعدها عن الأمثال والأسس التي تستند إليها وأهم أساليبها، وخصائصها الأسلوبية والمعنوية ثم شرعنا في الحديث عن الأمثال في الكتب العربية التي رأيناها تجلياً واضحاً لهذا الفن، جعلنا خلالها إضاءة نقدية تكشف بعضاً من وجوهها الإقناعيةوالإمتاعية.

الكلمات المفتاحية: النثر الفني– الأمثال– الأسلوب– الوظائف.

* أستاذ – قسم اللغة العربية – كلية الأداب والعلوم الأنسانية – جامعة دمشق – سورية
** طالب دراسات عليا (دكتوراه) – قسم اللغة العربية – كلية الأداب والعلوم الأنسانية – جامعة دمشق – سورية

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (3)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (3) 2016

The characteristics of stylistic and moral proverbs in artistic prose

Dr. KalilChareri[*]
MasoudAmiri[**]

(Received 25 / 5 / 2016. Accepted 30 / 6 / 2016)

□ ABSTRACT □

That our article intending to elucidate the art if an Arab proverb as a historical document and civilized reflect many of the features of Arab

Life by focusing mainly on aspects of ideals in the Arab artstic prose and will by goingto read carefully these ideal and deepened and a cases to meanings lying behind olrazama of and benefit from the effort put in by all values of Arab Preachers and Critics in order to develop This art.

Came search component of introduction. We talked then about proverbs and the basis for the most important methods and characteristics ofstylistic and moral then embarked on talking about proverbs in Arabic books that we have seen manifestation clear of this art maole after lighting cash reveal some of their faces persuasive and Altamaha.

Key words: artistic Prose, Proverbs, Stxle, Tasks.

[*]**Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University, Syria.**
[**]**Postgraduate Student, Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University , Syria.**

مقدمة:

المثل هو تشبيه حالة ما بأقرب الأمثال شبهاً بها وأكثرها مماثلة لها، ويقوم المثل في الإقناع مقام الاستقراء في المنطق، أو المثل هو استقراء بلاغي والمثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها [(1)]، وقد اعتاد الناس تقبل مضامين الأمثال؛ لأنها خلاصة تجارب العقلاء من الأجداد، وهي مدعمة، في الغالب بمجانسات صوتية تصادق على صحتها يقول الحسن اليوسي: [(2)]« إن ضرب المثل يوضح المنبهم، ويفتح المنغلق، وبه يصور المعنى في الذهن، ويكشف المعمى عن اللبس، وبه يقع الأمر في النفس حسن موقع، وتقبله فضل قبول، وتطمئن به اطمئناناً، وبه يقع إقناع الخصم وقطع تشوق المعترض »

وانتبه دارسو النص القرآني الكريم وأصحاب البلاغة من العرب بالممارسة والمثاقفة إلى أهمية المثل في إحداث الإقناع. وقد بيَّن ابن الكاتب ذلك فقال: [(3)]« وأما الأمثال فإن العلماء والحكماء والأدباء لم يزالوا يضربون ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلباً، وأقرب مذهباً، ولذلك قال الله عز وجل: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ}[الروم 58]. وقال: {وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ }[إبراهيم 45]. كذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم ونطقت ببعضه على ألسن الطير والوحش، وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها والمقدمات مضمومة إلى نتائجها »

وفي الخطابة تستوفي الأمثال أهدف الخطبة الرئيسية، الإيضاح، والتأثير، والإقناع والحث على التحرك والتسلية، وهي تثير فضول المستمع لمعرفة تمامها، فترغبه بمتابعة الخطبة بيسر، وفي هذا تسلية ونفي للسآمة وتقريب للهدف الأعلى من الخطبة وهو التأثير في الجمهور وتغيير سلوكه. فالمثل ذو شأن كبير في إيقاع الإقناع، وأثره في النفس لا يقل أثراً عن أثر الدليل. وفي القرآن الكريم: { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }[الحشر 21]، {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ }[العنكبوت 43]، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ }[الحج 73]، والواقع أن المثل يعدُّ دعامة كبرى من دعائم خطابة الإقناع والتأثير.

وإذا أخذنا بمعناه الواسع الذي يشمل التشبيه والاستعارةصار أهم دعائم هذه البلاغة.

حقاً: إن المثلموجِّه غير مباشر نحو الخلق النبيل والمعاملة الحسنة. والتفكير الصحيح، لأن من طبيعة الإنسان أن يستجيب للتوجيه مقتدياً بمن أحبه، وأن ينفر من سلوك طريق سلكه شخص يبغضه. ولهذا كانت الموازنة من أقوى الوسائل التي يمكن بواسطتها تصوير المثل الأعلى المحبوب في صورة شخص يقتدى به في خلقه وسلوكه أو تصوير سبيل الشر والضلال في صورة شخص كريه يعمل الشر ويمضي في طريقه إلى نهايته المحتومة وهي الهلاك والدمار.

- الأمثال ومبدأ مراعاة مقتضى الحال:

أجمع الباحثون في الأمثال على أن المدخل إلى الإجادة فيه إدراك مقتضى الحال، ومراعاة السامعين واختيار ما يناسبهم من أدوات الإقناع والتأثير.

---

(1)في بلاغة الخطاب الإقناعي: 68

(2)الصورة والإقناع: 118

(3)البرهان في وجوه البيان: 117-119.

على أن العمدة في المثل السامع الذي لابد من استحضاره مادياً، وملاحظة استعداداته الحاضرة بخلاف الشعر الذي يمكن أن يستنبطه ويقدره تقديراً، وذلك موصول بالقصد الإقناعي التأثيري لها وهو الأساس فيها.

وهذا ما أشار إليه ابن رشد عندما قال: « الكلام مركب من ثلاثة أشياء: من قائل وهو الخطيب، ومن مقول فيه وهو الذي يعمل فيه القول، ومن الذي يوجه إليهم القول وهم السامعون، والغاية بالقول إنما هي متوجهة نحو هؤلاء السامعين »[1]

فالرجل يراعي الخطيب والمستمع والخطبة، مع التشديد على حال المتلقي، فإقناعه هو الغاية من الكلام [2] أصلاً. والحق أن مبدأ مراعاة الحال في الأمثال لم ينفرد به العرب دون سائر الأمم، ولا القدماء دون المحدثين، ولكن قد يقع الاختلاف في العنصر الإقناعي المهيمن على الأمثال من حضارة إلى أخرى، فربما كان لطبيعة العلاقات الاجتماعية والسياسية التي سادت في المجتمع اليوناني أثر في ظهور الحجة والبرهان في أمثالهم، وعند موازنة حال هؤلاء مع العرب نجد أن العلاقات التناحرية سادت في الجاهلية، وعادت في أزمنة الفتنة بعد الصدر الأول من الإسلام، فوافقها أن غلب على أمثلتهم المنافرة والمفاخرة والميل إلى المدح والهجاء والتهديد[3]، فكانت الصدارة للأساليب اللغوية، وقلَّ فيها الحوار الهادئ القائم على الحجة والبرهان إلا في مناسبات محدودة، فاقتربت الأمثال عندهم من الشعر، ولا غرو في ذلك، فالشعر ديوانهم وعلمهم الأبرز. فالبلاغيون العرب وإن لم يتحدثوا عن الجوانب النفسية والأخلاقية للمرسل والمتلقي، إلا أنهم أدرجوا تحت عنوان مراعاة الحال كثيراً من الملاحظات التي يجب على الكلام أن يكون عليها أو أن يراعيها عند المستمعين. وهذا ما دارت عليه صحيفة بشر بن المعتمر (ت 210) [4]

ويمكن أن نعد بناء الأمثال من وسائل الإقناع الصناعية، وهو أن يصطنع المتحدث ترتيباً يساعده على الوصول بالسامع إلى ما يريده من التسليم.

وظائفه المثل المعنوية:

1 ـ الوظيفة التربوية:

تجدد هذه الوظيفةُ العهدَ بوظيفة أساسية من وظائف المثل الذي كان ينغرس في الحياة الاجتماعية ويغوص في أعماقها فتنتشر الحكمة في تضاعيفه وتمازج العبرة معظم أغراضه. ويكفي أن نورد في هذا الصدد ما قاله المرزوقي: [5]"المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسلة بذاتها، فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول، فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب، وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها".

وقال أبو عبيد: [6]"الأمثال حكمةُ العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، و حسن التشبيه، وقد ضربها النبي ﷺ، وتمثل بها هو ومن بعده من السلف". "فضمن هذا السياق التربوي الخلقي تندرج إذن

([1]) تلخيص الخطابة 51.

(2) في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم 165.

([3]) في بلاغة الخطاب الإقناعي ص 23.

([4]) البيان والتبين: 76/1.

(5) مجمع الأمثال 19/2.

(6) المزهر للسيوطي 358/1

أهمية المثل. لأنها أقيمت على أساس أخلاقي تربوي، يتجلى في التحريض على قيم إيجابية من شأنها أن تعيد الهوية للإنسان النموذجي والمثالي الذي لم يعد له وجود فعلي في زمن دائم التغير والتلون، وفي الدعوة إلى رفض قيم سلبية لعلها هي السبب في ما آل إليه الواقع العربي من تدهور وانحطاط.

إن الجبن قيمة سلبية ظلت تتردد بكثرة في الأمثال لأنها هي أم العلل التي جرَّتْ الواقع العربي آنذاك إلى الانحلال والفناء، نحو قولهم: [1]" هذا ولمَّا تردي تِهامة"، و[2]"عرف ميق جَمَلَهُ".

وفي مقابل ذلك توجد قيمة الشجاعة وهي فضيلة إيجابية من شأنها أن تعيد ما ضاع من مجد، لذلك دعا إليها المثل وأكثر من ذكرها، نحو قولهم: [3]" حيثُ لا يضعُ الرَّاقِي أنفه" [4]" إنَّ البغاث بأرضنا يَسْتَنْسِر". يُلاحظُ من هذه الأمثال وغيرها أن الأمثال من أفضل السبل للتربية، وتقويم المسالك، وإصلاح النفوس، وصقل الضمائر، وتهذيب الأخلاق، وتنمية الفضائل السامية، ويكون ذلك بتقديم النماذج البشرية الصالحة والنماذج البشرية الطالحة، بقصد توجيه النفوس المخاطبة إلى الاقتداء بالصالحين وتنفيرها من الطالحين.

2 – الوظيفة المعرفية النفسية:

تنبع هذه الوظيفة من الخصائص التركيبية لبنية المثل التي تتجسد في كونها بنية نصية مستقلة بذاتها عن أي مرجع أو سياق خاصين. فهي تحمل في كيانها السياق والمرجع.

وإذا كان المثل يرد في مظهر القدوة أو العبرة بعد أن تم إبرازه في شكل تجارب فردية في الحياة سرعان ما تنزع من سياقها الخاص فتتحول إلى تجربة عامة بعيدة عن أي تجربة ذاتية منفردة، فهذا يعني أنه قابل للاندراج في أي سياق بعد أن تعاد صياغته في جمل قائمة برؤوسها تتضمن الحكم والعبر استنادا إلى تجارب السابقين [5]. وهذا ما يؤهلها لتكون أجوبة لعدد لا يحصى من الأسئلة التي يطرحها القراء على أنفسهم، وعلى هذا الأساس تكون الحكم والأمثال قابلة؛ لأن تقرأ القراءات المتعددة وأن تقدم أجوبة لأسئلة كثيرة. ويرجع السبب في ذلك إلى أن كل متلق يتفاعل معها بمقدار عثوره على ذاته فيها، ليس هذا فحسب، بل إن للمثل أيضا وظيفة نفسية تتمثل في قدرته على التسلية وتهوين المصائب على النفس. والسر في ذلك أن عددا من الأمثال قد جاءت من الإنسان على الوجع، ولذلك وجد فيها كل متلق تفريجا لكربه وتهوينا لهمه وتعبيرا عن الخصوصية في تجربته. ولعلك تدرك هذا كله إذا ما تبصَّرت في قولهم: [6]" الحُسْنُ أَحْمَرُ"؛ أي من أراد الحسن صبر على أشياء يكرها. فانظر إلى تلك الوظيفة المعرفية والنفسية التي صورها هذا المثل في كلمات قليلة. وهذا المعنى – وهو كون النفوس مترشحة أو مترجحة لفعل من الأفعال أو لتركه – يزيد على كونها قابلة له أو لضده، فهي تتضمن هذا المعنى وزيادة ترجيح قبول ما فطرت على قبوله، أو ترك ما فطرت على تركه، يضاف إلى ذلك

ما ركز في النفوس في أصل خلقها من الوظائف والقوى النفسية، والحاجات الضرورية ونحوها.

3 – الصورة النموذجية:

---

(1) مجمع الأمثال 397/2.

(2) جمهرة الأمثال 50/2.

(3) جمهرة الأمثال 365/1.

(4) مجمع الأمثال 10/1.

(5) الوساطة 162.

(6) مجمع الأمثال 199/1.

إن مما يميز المثل –انطلاقا من معانيه العقلية المرتبطة بالحقائق المشتركة– هو انفتاحه على التجربة العامة التي لا تتقيد بتجربة ذاتية ولا تختص بالسياق الخاص الذي نشأت فيه، وإنما تنزع إلى ملابسة جميع الأحوال المماثلة لمضمونها، وقد يسَّر لها هذا الأمر الالتحام بتجارب الآخرين في ظروف تاريخية مغايرة، مما جعلها تكتسب صفة الصورة النموذجية التي تتميز بطابعها اللامكانيواللازماني.

وبما أن لهذه الصورة علاقة بالسلوك الإنساني العام وبحتمية الموت والفناء، والتحذير من الاغترار بالدنيا والناس، فقد جاءت مفتوحة على عامة الناس من دون تحديد شخصية المخاطب. ولذلك نجد في المثل انتشار ضمائر الحياد تلك التي لا تختص بمتكلم نطق بها، ولا تُعَيِّنُ متلقيا بذاته، وإنما تنفتح على المتلقي النموذجي الذي ينسلخ عن قيود الجنس والزمان، فيستقل بذاته عنهما فيعيش في مقام مجرد ينفتح على التجربة العامة. ومن طبيعة هذا الضمير أنه ينتشر في الحكمة والمثل. لذا أصبح هذا الضمير سمة أسلوبية ميزت المثل. ونضرب لذلك أمثلة بالشواهد الآتية:

[1]" كأنَّما قُدَّ سَيْرُه الآنَ"، و[2]" والشَّرُّ ألجأ إلى مُخِّ العراقيب"، و[3]"يداك أَوْكَتا وفُوكَ نَفَخَ".

ويظهر من خلال هذه الشواهد أن الضمير فيها لا يعين شخصية بذاتها، وإنما هو ضمير حيادي جمعي تعددي يعبر عن عدة وجوه لسانية. وهذا ما يجعل من المثل كلاما لا يتوجه إلى معلوم ينحصر في متلق محدد بقدر ما يتوجه إلى كل المتلقين من حيث إنهم أفراد تجري عليهم قوانين الوجود وأحكامه. ولذلك يكون مجاله هو المشترك بين الناس لا ما ينفرد به بعضهم عن بعض.

هكذا نجد أن الأمثال في ميدان الهداية إلى الخير، والتنفير من الشر تُقدِّم نماذج لنفوس بشرية، وإن في دراستها لعبرة، وفي تدبرها عظة، وكم في الأمثال من نماذج للصالحين: من النبيين، والحكماء، والصديقين، والربانيين، إنها النماذج الصالحة في معتقداتها، ومسالكها، وأخلاقها، في قلوبهم نور وفي عملهم نور وفي أقوالهم نور؛ كما تقدم الأمثال نماذج لنفوس انطوت على الشر والسوء، ونفوس انسلخت مما يدعو إليه العلم النافع، والآيات البينات بعد أن علموها، فلم يشرفهم العلم؛ لأنهم لوثوا أنفسهم بالعُجب والغرور.

4 –الاختزال:

المثل صيغة تعبيرية تقوم على الاختزال والتوسع أو على الإيجاز والإطناب في علاقتها بمرجعها الخارجي. بمعنى أن المثل يختزل في عبارة موجزة ومكثفة تجارب إنسانية تتسم بالتفصيل والامتداد، أي أن المثل يجمل ويكثف ما هو مبسوط ومفصل على مستوى التجربة الفعلية، حيث يصبح الانتقال من الحدث الخارجي إلى بنية المثل مبنيا على التدرج من جزئيات إلى كليات. ويخضع هذا المسار لمنطق تعليمي مبدؤه الكشف عن حقيقة كلية تتحول إلى رمز يكتسي صبغة التعميم والحياد.

فمن هذا المنطلق جاءت أهمية المثل من حيث مبناها موجزة العبارة، خالية من تعقيد الصور البلاغية إلا ما يكون من أمر الصور القائمة على التراكيب البسيطة التي تنتشر على مساحة طول المثل أو قصره أو عليه كاملا. ومن أمثلة ذلك: [4]" إنَّما سُمِّيتَ هانِئاً لِتَهنأَ"، و[5]" عِنْدَ جُهَيْنَةَ الخَبَر اليقين"، و[1]" لا تعدمُ الحَسناءُ ذَاما".

---

(1) مجمع الأمثال 132/2.

(2) زهر الأكم 228/3.

(3) جمهرة الأمثال 243/2.

(4) مجمع الأمثال 18/1.

(5) جمهرة الأمثال 44/2.

لما كانت أهمية المثل على هذا النحو من التكثيف وبساطة التركيب ووضوح الصورة، جاءت واضحة الدلالة على معانيها كل الوضوح، مستقلة عن سياقها الخاص وظروف نشأتها، مما يجعلها قابلة لأن تعلق بالأذهان ويسهل حفظها ليتم إدراجها بعد ذلك في أي سياق مماثل، ولتكون أيضا موضوعا للتضمين والاستشهاد في المحاورة والمراسلة.

ومثال ذلك قوله ﷺ الذي ورد فيه المثل بمعناه الأنموذجي: "إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مَثَلاً لِلدُّنْيَا وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ فَانْظُرُوا إِلَى مَا يَصِيرُ".

ففي هذا المثال لا يوجد تشبيه من حيث الأسلوب، وإنما أبرز طعام ابن آدم مثالاً ليقاس عليه حال الدنيا ومتعها وما تنتهي إليه، فهذه الألفاظ القليلة قدَّمت لنا معاني كثيرة، وهذا ما يعطي المثل قيمته الخالدة في كل زمان ومكان.

5 ـ الإقناع والإمتاع:

تدور أهمية المثل من حيث المعنى على حقائق بسيطة من قبيل البديهيات الشائعة التي تعتمد معنى عقليا محضا يشهد له العقل بالصحة وتتفق العقلاء على الأخذ به، والحكم بموجبه في كل جيل وأمة ويوجد له أصل في كل لسان ولغة.

وهذا يعني أن هذه الحقائق البديهية هي عصارة تجارب بشرية طويلة في صراعها التاريخي مع الكون والطبيعة وصراع الناس بعضهم ضد بعض وصراع الذات المفردة ضد المجموعة وضد أصناف الحدود والعراقيل التي تفسد العيش والحياة. لذا أبصر عبد القاهر في قول أبي الطيب:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

[2]«حكمة بالغة ومثلاً سائراً يحيل على "معنى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته، وبه جاءت أوامر الله سبحانه إذ كان موضوع الجبلَّة على أن لا تخلو الدنيا من الطغاة الماردين، والغواة المعاندين، الذين لا يعون الحكمة فتردعهم، ولا يتصورون الرشد فيكفهم النصح ويمنعهم، ولا يحسون بنقائص الغي والضلال، وما في الجور والظلم من الضعة والخبال، فيجدوا لذلك مس أليم يحبسهم على الأمر ويقف بهم عند الزجر، بل كانوا كالبهائم والسباع، لا يوجعهم إلا ما يخرق الأبشار من حد الحديد، وسطو البأس الشديد، فلو لم تطبع لأمثالهم السيوف ولم تطلق فيهم الحتوف، لما استقام دين ولا دنيا، ولا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتبة العليا، فلا يطيب الشرب من منهل لم تنف عنه الأقذاء، ولا تقر الروح في بدن لم تدفع عنه الأدواء".

ويشير مثل هذا الكلام إلى أن الجرجاني قد فطن إلى أن أهمية المثل تدور على حقائق سرمدية مشتركة بين الناس كلهم، لم يزد الشاعر على أن ذكرهم بها في صيغة تعبيرية بسيطة مع الإبقاء على الإطلاق والتعميم.

وخير مثال على هذا الكلام قولهم: [3]"خبْرَاءُ وَادٍ لَيْسَ فِيهَا مَهْلَك"، وقولهم: [4]" كَيْفَ أُعَاوِدُكَ وَهَذَا أَثَرُ فَأَسِكَ"، وقولهم: [5]" إِنَّ الدَّوَاهِيَ في الآفاتِ تَهْتَرِس".

ومما تقدم يتضح أن من أغراض الأمثال القرآنية، الإقناع بحسن الأمر الممثَّل له، بإبراز محاسنه ومزاياه، أو الإقناع بقبحه وفساده، بإبراز مساويه، وخزاياه.

---

(1) جمهرة الأمثال 398.

(2) أسرار العربية 214.

(3) مجمع الأمثال: 120/2.

(4) مجمع الأمثال: 145/2.

(5) مجمع الأمثال: 12/1.

فضرب الأمثال لغرض الإقناع بذكر محاسن الحقِّ والترغيب فيه، وذكر قبائح الباطل والتنفير منه.

هذا الغرض قد استأثر بحظ وافر من أمثال القرآن الكريم، فكثير من الناس قد ينخدع بظاهر الأمر دون أن يسبر غوره، ويتعرف على خفاياه، فإذا كشفت له تلك المساوئ المستورة ومثلت له بمثال معقول مطابق، اقتنع به واستدل به على الحكم الصحيح الذي يجب أن يصير إليه من معرفة حقيقة ذلك الأمر، وعدم الانخداع بظواهره الخلابة.

- الخصائص الأسلوبية للأمثال

يحتل الأسلوب الصدارة في البلاغة العربية التي لم تميز بين الشعر والنثر إلا في بعض الجوانب مثل «عدم التزام الوزن أو التطرق إلى موضوعات دون أخرى» [1]. وتعود أهمية الأسلوب في نظر أرسطو إلى أن عامة الناس « يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة فلا يكفي أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي ». [2]

1. المساواة والإيجاز:

ربط النقاد هاتين الظاهرتين بطبيعة المناسبة والموضوع وبحال الجمهور. فالمطلوب من المثل الإفهام والإقناع، وما يحققه يتدرج تحت مسمى البلاغة، وقد أجاب العتابي حينما سئل عن البلاغة بقوله: « كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة، فهو بليغ »[3]

وبهذا وصف كلام النبي ﷺ فهو يستعمل « المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر »[2]

ومع أن الكلام في المواضع القصار أكثر عند العرب من الطوال، ورواة العلم إلى حفظه أسرع «فلكلٍ مقام يليق به وموضع يحسن فيه» [3]، والسبب في ذلك أن موضوعات الكلام ومعانيه تتفاوت من حيث السهولة والصعوبة، فيتفاوت الكلام ورائها في الإطناب والإيجاز، أو يكون مساوياً لها، وكل ذلك حسن إذا وافق حاله، لذا كانت الأمثال خير دليل وتجسيد لهذا

وقال أبو العباس المبرد: « من كلام العرب الاختصار المفهم والإطناب المفخَّمُ وقد يقع الإيحاء إلى الشيء فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه. كما قيل. لمحة دالة » [4] فأنت ترى أنهم مدحوا الأمرين: الإطالة في موضعها والحذف في موضعه فهذا كله من مراعاة حال السامعين، ومن هنا كانت الأمثال تصويراً صادقاً لهذا الكلام.

ومن المعايير المرجحة لاختيار أحد الأمرين: المساواة والإيجاز، النظر في المعاني، والوفاء لها بما تستحق من الألفاظ، « فإنما الألفاظ على أقدار المعاني كثيرها يكون لكثيرها، وقليلها لقليلها»[5]، وهذه هي المساواة، ولا يخرج المثل المثل عن صفتها، وإن كان طويلاً إذا اقتضى بيانه الطول.

وربط بعض النقاد مطلب الإيجاز في الأمثال بحال الجمهور والخوف من انقضاء نشاطه وإقباله، قال الجاحظ: « على أن الكلام لا ينبغي أن يكثر وإن كان حسناً كله، إذا كان السامع لا ينشط له، وجار قدر احتماله، لأن غاية المتكلم انتفاع المستمع، وقد قال الأولون، قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ، خير من كثير وافق من الأسماع نبوة ومن

([1]) الصناعتين 154-157.

([2]) الخطابة، أرسطو 225.

([3]) البيان والتبيين 146/1.

([4])الكامل 16/1-17.

([5]) الحيوان، 6/7

القلوب ملالة » فهذا من مراعاة حال السامعين. لهذا جاءت الأمثال مختصرة قصيرة تلخص تجارب السابقين وأحوال الغابرين بأسلوب لطيف مختصر.

إن المتقرر في دلالة العقول أن المساواة في الذات والصفات تعني المساواة في الاستحقاق العام والأحكام.

فكل من أثبت مشابها ونظيرا لله في ذاته أو شيء من صفاته وأفعاله، فقد جعل له شيئا من الألوهية، وأوجب له العبادة تعالى الله عن ذلك.

وعلى هذه القاعدة جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ﴾.

ومعنى الآية:قل يا محمد إن ثبت لله ولد، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته. ولكنه يستحيل أن يكون له ولد. وفيه نفي للولد على أبلغ وجه، وأتم عبارة، وأحسن أسلوب.

وهذا هو الظاهر من النظم القرآني، ومثل هذا قول الرجل لمن يناظره:"إن ثبت ما تقول بالدليل فأنا أول من يعتقده ويقول به".

هذا النوع من الإلحاد – باعتقاد الأنداد لله المماثلين له بالذات أو شيء من الصفات – يؤدي إلى جعلهم أندادا له في الألوهية، وشركاء في العبادة.

ولهذا الاعتبار – وهو اقتناع الكثير من الناس أنه لا يعبد إلا من كانت له الربوبية، أو شيء منها، ويملك النفع، ودفع الضر لعابديه– لجأ شياطين الجن والإنس إلى الافتراء على الله، زاعمين أن بعض الخلق لهم تصرف في الكون، وأنهم خلفاء عن الله في تدبير ملكه وعباده، وأن بعض الأولياء هم مظهر صفات الله الأزلية، أو نور من نور ذاته، وأنهم ينفعون من شاؤوا ممن يتقرب إليهم ويعبدهم، ويضرون من شاؤوا، وأنهم يعلمون الغيب. وأن النجوم أرواح فعالة لها تأثير على الأرض ومن فيها؛ وغير ذلك من الأباطيل التي نسجوا لها القصص، وزخرفوها بالشبهات، ليغرروا بها الجهال.

3. السجع:

عدَّ العرب مجانسة الألفاظ. ومنها السجع. من أبرز ما يميز الكلام، ولعل وراء جعلهم السجع من أهم أركان الكلام أنهم أدركوا فوائده العديدة، ومنها الطاقة الإقناعية التي لمسوها فيه، حتى خشوا من أثرها في العامة فوقع النهي عن السجع، وهذا ما نبه إليه عبد الصمد بن الفضل الرياشي وجعله السبب في إنكار النبي ﷺ على من خاطبه بقوله: « يا رسول الله، أرأيت من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس مثل ذلك بطل، بقوله « أسجع كسجع الجاهلية »، وهو المكثر من السجع في كلامه، لولا أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن لما كان عليه بأس، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالاً لحق فتشادق في كلامه»[1].

وللسجع والمجانسات اللفظية أثر في الإقناع، لهذا السبب رأينا خلود الأمثال في أذهان الناس قديمهموحديثهم، لأنها الإقدار على الحفظ، وهذا ما صرح به الفضل بن عيسى الرياشي حين سئل عن إيثاره للمسجوع على المنثور، فأجاب: « إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت»[2]

وقد فهم النقاد المعاصرون ما قاله القدماء، وزادوا بعض التفصيل، فرصدوا أن الجناس الذي بني عليه المثل نوعٌ من أنواع الترسيخ، فهو إيهام بالوحدة المعنوية بين أطراف غير متوحدة في المعنى، وهذا أساس المغالطة فيه، ذلك

([1]) البيان والتبيين 1/ 158.

([2]) البيان والتبيين 158/1.

أن الذهن عند مروره باللفظ الأول مولد الجناس يحفظ معناه في شكل أثر تختزنه الذاكرة القصيرة، « ثم يظهر اللفظ المجانس التالي فيقفز منها ذلك المعنى الأول ويرشحه الذهن للدخول في السياق، إلا أنه لا يلائمه فيطرحه ويقر المعنى الجديد الملائم»[1]

والأثر الترسيخي مما رصده النقد في الأمثال، إذ كان الجناس من أهم خصائص اللغة الشعرية. قال جان كوهن: « كل نظم هو رجوع بالمقابلة مع النثر؛ أي: إنه يتقدم خطياً في حين ينكفئ النظم دائماً على نفسه »[2]

على أنه لا يستحسن الإكثار من المجانسة اللفظية في الأمثال حتى لا تقترب من الشعر وتفقد بذلك جانباً من إبلاغ شحنتها الإقناعية، فتغدو المتعة اللفظية وبالاً على المقاصد المعنوية، والأولى أصل والثانية فرع.

فقولهم: [3]" إنَّ الْحَمَاةَ أُولِعَتْ بالْكَنَّهْ وَأُولِعَتْ كَنَّتُهَا بالظِّنَّهْ"، وقولهم: " إنَّ مِنَ ابْتِغَاءِ الخَيْرِ اتِّقاءَ الشَّرِّ" فهذه النغمات الأولى في المثل، وعلى أساسها ينصب جميع النغم الذي نقرؤه فيه؛ إذ نرى المثل يحاول دائماً أن يجود لفظه، وهو لا يكتفي بذلك، بل يسعى دائماً إلى إحداث ضروب من التوقيع، وهو توقيع كان يلتمسه من معادلة ألفاظه معادلة لا تنتهي إلى السجع، ولكنها تنتهي إلى هذا التوازن الصوتي الدقيق، فكل جملة تقابل أختها في موازين المثل الموسيقية، وفيه موازينتحقق لصيغة هذا اللون من الجمال الموسيقي الذي كان يسميه القدماء ازدواجاً، ونسميه إيقاعاً وتلويناً صوتياً بديعاً.

4. المقابلات والموازنات:

مثلما امتدح النقاد الأسجاع ورصدوا فوائدها الإقناعيةوالحفظية امتدحوا أيضاً المطابقات والمقابلات في الألفاظ والتراكيب، ففي مدح ظاهرة الازدواج، قالوا: « لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج »[4].

ويضيف العسكري: « ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن، لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات »[5]

وفي الازدواج تشارك صرفي يضاف إلى تشارك تركيبي، وقد ألحق ابن الأثير المؤاخاة بين المباني بالتناسب بين المعاني، والمؤاخاة بين المباني تعني عنده «مقابلة الشيء بمثله، المفرد بالمفرد، والجملة بالجملة »[6].

وهذا الإلحاق يمكن أن نفسره بإدراك ابن الأثير لما تتركه الجمل المتساوية في الازدواج والمقابلة من إيحاء بكثرة المعاني، وإحاطة الأمثال بأقسام القضية التي يتحدث عنها، ففي ذلك إمتاع وإقناعً معاً.

ففي قولهم: [7]" الْحق أَبْلَج وَالْبَاطِل لجلج"، و [8]" قَوْلهم خير الْعلم مَا حوضر بِهِ" تتضح الحقائق بالمقابلة والموازنة، حقائق النفوس، وحقائق الحياة، ويعرف الإنسان موقفه، وليس هناك من رادع عن الشر، وزاجر عن الوقوع

([1]) دروس في البلاغة العربية 155-156.

([2]) بنية اللغة الشعرية 52-53.

(3) مجمع الأمثال: 11/1.

([4]) الصناعتين ص 283.

([5]) الصناعتين 285.

([6]) المثل السائر 143/3.

(7) جمهرة الأمثال: 341/1.

(8) جمهرة الأمثال: 413/1.

فى معصية، من عرض قصة، أو تبيان حالة، كما أنه ليس هناك من داع إلى الخير، ودافع إلى الإحسان، من التمثل بحال من الواقع، وسرد لحقيقة يصحبها الدليل والبرهان، وهكذا النفوس جبلت على الاقتداء، والإيمان بالممارسة والعمل، ولذا فإننا حين نعرض للأمثال في هذا السبيل الداعي إلى الخير، فإننا نتمثل الإنسان وما يصدر عنه، وما يحيط به، وما يقع منه، وكذلك نعرض لهذه الأمثال التي تحذر من الشر، والوقوع في براثنه، والتأثر بمغريات الحياة وشهواتها؛ لذلك

أتت هذه الأمثال كما نراها شاملة لجانبي الحياة من خير وشر، ومن فضيلة ورذيلة، حتى يسهل عن طريق الموازنة والمقابلة، الحكم على الأشياء، وبضدها تتميز الأشياء.

5. مبدأ الاعتدال في الصنعة:

رأى النقاد والبلاغيون أن الإفراط في الصنعة اللفظية مضرة بالكلام الذي يعدُّ المثل أحد أجناسه؛ لأنه مظنة التكلف والغموض، فالأول يفقد المتكلم قدره في أعين المشاهدين والثاني يفوت الإفهام، وهو من مقاصد المثل في رأس الهرم، لذا راح ابن الأثير يدعو إلى الاعتدال في استخدام الصنعة فقال: « إنما يحسن منها في الكلام ما قلَّ وجرى مجرى الغرة من الوجه، أو مكان الطراز من الثوب، فأما إذا تواترت وكثرت فإنها لا تكون مرضية لما فيها من أمارات الكلفة »[1]

وأما صاحب كتاب منهاج البلغاء، فقد طالب بالاعتدال في الصنعة أيضاً وأضاف إضافات حسنة، فحبَّذا الافتتان في الأساليب وترك الاطراد.

« وكلما كان الكلام مقتصراً به على فنٍّ واحدٍ من الإبداعات . وإن كان حسناً في نفسه . لم يحسن، لأن ذلك مؤد به إلى سآمة النفس فإن شيمتها الضجر مما يتردد، والولع بما يتجدد »[2].

وفي النقد الحديث موافقة لإلحاح القدماء على الاقتصاد في الصنعة في الأمثال، فالصنعة تورث الكلام نظاماً، لكن لابد من مراعاة مقتضى الحال حفاظاً على الطاقة الإقناعية للنص.

فالناظر في الأمثال الصادرة عن العرب يراها تستخدم المحسنات البديعية بشكل متناسب ومتناسق، نحو قولهم: [3]"إِنَّهُ يَحْمِي الحَقِيقَةَ، ويَنْسِلُ الوَدِيقَةَ، ويَسُوقُ الوَسِيقَةَ"، وقولهم: [4]" لْحُرُّ حُرٌّ وَإِنْ مَسَّهُ الضُّرُّ"، وقولهم: [5]" فِي الصَّيفِ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ".

وقديماً امتدح علماء البلاغة الاعتدال في استخدام الصنعة، فلا محسنات كثيرة، ولا إقلال في التصنيع؛ لإن كل نوع منها حسن في موضعه، أما ما يستقبح فهو أن تطول الفقرة الثانية عن الأولى كثيرًا، بحيث يخرج بها هذا الطولُ عن حد الاعتدال؛ لأن هذا يفوت على السامع لذةَ الاستمتاع بالقافية لبُعدها بعدًا كثيرًا، كما يقبح أن تقصر الثانية عن الأولى قصرًا كثيرًا؛ لأن التصنيع إذا استوفَى أمدَه من الأولى لطولها، ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيرًا، كان ذلك كالشيء المبتور، ويبقَى السامع كمَن يريد الانتهاء إلى غاية، فيعثر دونها، ومن ثَم لم يرد شيء من ذلك في أساليب النظم الكريم.

([1]) المثل السائر: 338/1.

([2]) منهاج البلاغة 123.

(3) مجمع الأمثال: 24/1.

(4) مجمع الأمثال: 208/1.

(5) مجمع الأمثال: 68/2.

الاستنتاجات والتوصيات:

من خلال ما سبق توصل البحث إلى أهمِّ النتائج الآتية:

1 -إن المثل جنس أدبي مهاجربإمكانه أن يسافر إلى بيئات ثقافية مختلفة ومتعددة، فيصبح متداولاً في فضاء أكبر. كما أن متلقيه قد يتحول من إنسان مقيد إلى إنسان مطلق ذي طبيعة كونية شاملة تتعدى مكانها وزمانها إلى ما هو أوسع وأرحب. وفي ذلك تكمن القيمة الشعرية والجمالية التي تميز المثل. ومن أجلها عدَّه العرب جنساً أدبياً سائراً في الزمان والمكان. وهذا ما أكسبه صفة الاستمرارية والتفاعل مع المتلقين لمدة زمنية طويلة حتى بعد تلاشي السياقات التاريخية التي نشأ فيها، فكلما أفلح الأدب في هز أفئدة عدد كبير من الناس، وانتشر في مكانه وفي غير المكان الذي قيل فيه، وفي زمانه وغير الزمان الذي نشأ فيه، كان ذلك سببا في خلوده ودليلا على أنه مشتمل على الجودة مجُسِّم للقيمة الفنية كل التجسيم.

2 -تَعدُّ العرب مجانسةَ الألفاظ. ومنها السجع. من أبرز ما يميز المثل، ولعل وراء جعلهم السجع من أهم أركان المثل أنهم أدركوا فوائده العديدة، ومنها الطاقة الإقناعية التي لمسوها منه، حتى خشوا من أثرها في العامة فوقع النهي عن السجع.

3 -إن العمدة في المثل السامع الذي لابد من استحضاره مادياً، وملاحظة استعداداته الحاضرة بخلاف الشعر الذي يمكن أن يستنبطه ويقدره تقديراً، وذلك موصول بالقصد الإقناعي التأثيري منه وهو الأساس فيه وهذا ما نبه إليه النقاد.

4 -من الوسائل الجذابة والمقنعة في المثل بيان فضل الشيء أو عيوبه، فإذا أردت من شخص ما أن يقبل على عمل ما فما عليك ألا أن تقوم بسرد محاسن وفضائل هذا العمل بجملة من الأمثال من دون أن تطلب منه بشكل صريح أن يتجه إلى هذا العمل فيجب عليك أن تشير إلى أهمية هذا الموضوع تلميحاً لا تصريحاً، ويمكن إقناع الآخرين كذلك ببيان عيوب الشيء حتى يعدلوا عنه.

5 -يقوم المثل في الإقناع مقام الاستقراء في المنطق، أو المثل هو استقراء بلاغي والمثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية إحديهمابالنظر إلى نهاية مماثلتها وقد اعتاد الناس تقبل مضامين الأمثال باعتبارها خلاصة تجارب العقلاء من الأجداد، وهي مدعمة، في الغالب بمجانسات صوتية تصادق على صحتها.

6 -أدرك العرب القدماء ولاسيما في القرون الأولى، أنّ المثل سلاح ماضي في الإقناع، يفيد منه أهل الحق جلاءً لحقهم، وأهل الباطل تلبيساً على الناس لباطلهم، لذا بذلوا جهداً في جمعه والتأليف فيه، وترجمة ما كتب عنه، ومعالجته بالشرح والتلخيص، وكان الفضل لمجموعة من الفلاسفة والنقاد.

المصادر والمراجع:

-أسرار البلاغة، للجرجاني، المراغي، مصر.
-البرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاتب، تح. حنفي شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، 1969
- بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، تر. محمد الولي ومحمد العمري، دار طوبقال، الدار البيضاء، 1986
- البيان والتبيين، الجاحظ، تح. عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق.
- تلخيص الخطابة، ابن رشد، تح. محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976

-جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري،
-الحيوان، الجاحظ، تح. عبد السلام هارون، المعهد العلمي العربي الإسلامي، ودار إحياء التراث العربي، بيروت
- الخطابة، أرسطوطاليس، الترجمة العربية القديمة، تح. بدوي عبد الرحمن، وكالة المطبوعات بالكويت ودار القلم
- الخطابة فن الإقناع والإمتاع، فيصل صلاح الدين أصلان، مركز البحوث التربوية، الرياض، ط1، 2004
- دروس في البلاغة العربية، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1992
-زهر الأكم
- الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تح. محمد قميحة، دار الكتب العلمية، 1981.
- الصورة والإقناع، محمود شمال حسن، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2006
-في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، لوليد إبراهيم قصّاب، دار الفكر، دمشق، 2010.
- في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1986
- الكامل في اللغة والآداب، المبرد، مؤسسة المعارف، بيروت
- كتاب في المنطق، الفارابي، تح. محمد سالم سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976
-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تح. أحمد الجوني وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، ط2
-مجمع الأمثال، للميداني، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، المطبعة المحمدية، 1955.
-المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، تح محمد عبد الرحيم، دار الفكر، بيروت، ط1، 2005.
-الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي الجرجاني، تحقيق محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار القلم، بيروت.